

الحس المأساوي في أدب أبي حيّان التوحيدي

الدكتور عبد الفتاح نافع

أستاذ مساعد في كلية الآداب

بجامعة اليرموك

أربيد - الأردن

عاش التوحيدي في القرن الرابع الهجري . وشهد فترة الانحطاط السياسي والاقتصادي والاجتماعي والخلقي ، وما تبع ذلك من فقر واستبداد وخوف وقهر واضطهاد . فكان شاهداً على مأساة العصر . فسرت في نفسه روح الكآبة وتعمق فيها الشعور بالأسى ، وهو يـرى الفقر المدقع وطغيان المادة وسقوط المثاليات واستئراء النفاق . فانطلق في أدبه يعبر عن مأساة الانسان المتطلع للمثال الباحث عن الحقيقة .

وقد ترك فقره الشديد أثره على رؤيته للحياة والاحياء ، وعمّق لديه الاحساس بالتشاؤم وتفاهة الحياة . وحاول عن طريق طموحه العظيم وقدراته الفكرية أن يتغلب على الاحساس بمرارة الفقر . فعاش أزمة المادة وعاش أزمة الفكر . وسعى جاهداً للوصول الى بلاط الكبراء فأخفق في أن يجد المكانة التي تليق به وبأدبه . وشاهد اغطهاد العلماء والأدباء والمفكرين من قبل ذوي النفوذ ، فعمّق هذا شعوره بالمأساة ، وزاد هذا الشعور حدة ما رآه من نفاق أدبي وتزلف وترد بالأدب لارضاء فئة معينة . وعمّقت هذه الأمور أزمته النفسية ، فساءت نظرته الى عصره والى أناسه . وانكفأ على نفسه ليصوّر خجالت الذات الانسانية وأخيلتها وتطلعاتها دون خوف أو تردد . وما نسبت أزمته النفسية أن جعلته غريباً في كل شيء ، في أدبه وخلقه ، في تدينه وتصوفه ، في فلسفته وفنه . وانقطعت الصلة بينه وبين الوجود ، وبينه وبين الاحياء ، فانخلع عن عصره ، ليعيش في ذاته يكثف عن معاناتها وخفاياها وأطوارها في تأمل صوفي . فصوّر مأساة الفرد في نفسه وفي مجتمعه ، وصوّر الشقاء الانساني في أمور الحياة وشؤون الفكر على اختلاف العصور .

شهد القرن الرابع - عصر التوحيدي -

تمزق الدولة العباسية الى دويلات مستقلة أو شبه مستقلة ، وانحسار سلطة الخليفة العباسي . وتبع تفكك عرى الخلافة ضعف في السلطة ، فانتشرت الغوضى ، وذاعت الفتنة ، وعم الاضطراب في أرجاء الدولة ، واستأثر العنصر الفارسي بالحكم ، فصيح الدولة بصيغته ، وزحزح العرب عن مكانهم ونافسهم في لغتهم شعراً وأدباً وتالياً . وتبع الانحطاط السياسي فوضى اقتصادية

واجتماعية ، فشاع الخوف وانتشر الظلم وفقد الأمن والاستقرار (١) . وحدث تباعد هائل بين الطبقات نتيجة سوء توزيع الثروة العامة ، فغني فريق ، وحرمت الغالبية - بمن فيهم المفكرون - من القوت الضروري ، فظهر العيارون الذين دبوا الفزع في كل مكان ، وخرقوا هيبة السلطان ، وارقوا الدماء ، ونهبوا ما استطاعوا ان ينهبوا (٢) ، وكان لتفشي ظاهرة الاقطاع وكثرة الضرائب والمصادرات أثره ، فساءت

أحوال الناس وأصبحت الأمة كما يقول التوحيدي " في عيش نكد وشؤم شامل وبلاء محيط وغلاء متصل، ودرهم عزيز، ومكسب دنس - وخوف غالب " (٣). وتبع هذا انحطاط في القيم وفساد في سوء نظرة الناس للدين، فأصبح وقد " أخلق لبوسه وأوحش مأنوسه، واقتلع مغروسه، وصار المنكر معروفًا والمعروف منكراً " (٤) وبعد أن " كان الناس يتقلبون في بساط الشمس (أعنى الدين) فغربت عنهم، (أعنى الجهل وقلة الحياء) فلا جرم اعزل الداء، وأشكل الدواء، وغلبت الحيرة، وفقد المرشد، وقل المسترشد " (٥).

ومن المفارقات أن هذا الانحطاط السياسي والخلقي والاجتماعي والاقتصادي رافقه رقي عقلي عظيم، فالقرن الرابع أغنى القرون معرفة وثقافة، وأكثرها علماء وأدباء وفلاسفة، وأغزرها إنتاجاً وأعظمها ابتكاراً. فقد ظهرت فيه المعاجم اللغوية والكتب المؤرخة والموسوعات العلمية الكبرى، ونضجت الفلسفة، وشهد العصر مرحلة الصراع الفكري بين مختلف المذاهب والنحل.

ويبدو أن الاستبداد والقهر والخوف جعلت كثيراً من العلماء والمفكرين والأدباء يجمعون عن المشاركة في الحياة العامة، ويبتعدون بأنفسهم عن السلطان خوفاً من العواقب واذلال النفوس، فانكفؤوا على نفوسهم، يبحشون، وينقبون، ويفكرون، ويشغلون أنفسهم بهذه المناقشات العلمية والمحاورات الفكرية، فيشبعون أرواحهم بعد أن خويت معدتهم (٦).

وإذا كان الخوف قد أوجد مثل هذا المنحى الإيجابي، فقد كان له منحى سلبي خطير. فالأدباء الذين تجمعوا في قصور الخلفاء والأمراء، عاشوا في جو من الدسائس والمؤامرات والتناحر والتملق، فبعدوا عن المثالية، وسقطوا في هوة النفاق

طمعاً في الوصول إلى الشهرة. فغلب التكلف على أدبهم، وفقدت العاطفة حرارتها، وأصبح التسول مهنة تحترف. ورافق هذا شك في العلماء وسلامة آرائهم وبعدهم عن التحيز " فلم يبق من يرضى هديسه أو يقتبس علمه، أو يخطب عرفه، أو يقتفى جوده، أو يقدح زنده، أو يستفاد لفظه، أو يتوخى معانه، أو يعرف حده، أو يعرض أدب من الآداب عليه " (٧).

وكان التوحيدي شاهداً على مأساة العصر، فتأثر بروح العصر ومجرياتة، فسرت فيه روح الكآبة، وتعمق فيه الشعور بالأسى، وهو يرى الفقر المدقع، وطفيلان المادة، وتحطم المثاليات، واستشراء النفاق وكان أكثر الأدباء فهماً لزمانه وأأساه، وأكثرهم إدراكاً لمفهوم الواقع والمثالي. فانطلق في أدبه يعبر عن مأساة الإنسان المتطلع للمثالي المنشود، الباحث عن الحقيقة، المشدود إلى الواقع المرفوض. فعاش عذاب المجموع، وعاش عذاب الفرد، فجاء أدبه صورة للشقاء الإنساني في الحياة المادية وفي حياة الفكر.

١ - التوحيدي بين أزمة المادة وطموح الفكر. لم يكتب للتوحيدي أن يكون على جانب من الشراء يغنيه عن ذل السؤال. أو أن يكون من أسرة عريقة ذات انتماء تأخذ بيده، فتحول بينه وبين السقوط في هوة الفقر المدقع. أشقاء الفقر وأضناه، حتى لم يعد يرى إلا " الغرباء والمجتدين والأدنياء الأردباء " (٨) وكأنه وجد في هؤلاء بديلاً عن الثروة وشرف الانتماء.

عاش التوحيدي في عصر مادي مضطرب، حيث " بارت البضائع وغارت البدائع، وكسد سوق العلم، وخمد ذكر الكرم، وصار الناس عبيد الدرهم بعد الدرهم " (٩). ولم تقم مهنة الوراقة التي مارسها بسداد رmqه لضؤولة موردها وقلة جدواها (١٠) فلم يكن

يظفر بقوته الضروري، وغذا" يأكل الكسيرة اليابسة، والبقيلة الذاتية، ويلبس القميص المرقع، ويتأدم الخبز والزيتون، وينفق أربعين درهما في الشهر" (١١). ولا يفوز بالبلغة من العيش "إلابيع الدين، وأخلاق المروءة، وارقاة ماء الوجه، وكد البدن، وتجرع الأسى، ومقاساة الحرقة، ومضّ الحرمان والصبر على ألوان وألوان" (١٢). ورسخت الفاقة في نفسه شعورا بالمرارة والقرف، وتمنى الموت (١٣)، ذلك أنها اضطرت أن يروض نفسه على التضرع، وأن يغرق في التملق (١٤). كما ترك الفقر أثرا عميقا في نفسيته وفي رؤيته للحياة والأحياء، فعمّق لديه الاحساس بالتشاؤم وتفاهة الحياة، وجعله ينتحل القناعة رياضية، ويدرع الصبر، ويتخذ الانقباض صناعة (١٥). وكان لهذا كله مردود على الأدب، ففاضت نفسه بنقائص المجتمع والأفراد، وسجل مآسي العصر في أخلاق ملوكه ووزرائه وكتابه، كما صور حالة البؤس والهوان التي انحدر إليها الناس ومنهم المفكرون وأهل الأدب. ولعل كثرة الأبواب التي عقدها عن المطعمين والطاعمين، وأحاديثه فيها عن ألم الجوع والحرمان وضنك المعيشة، وأثر ذلك في النفس البشرية، في تصرفاتها واتجاهاتها، دلالة واضحة على أن الرجل سخر قلمه للحديث عن هذا الجانب المأساوي تسخيرا رائعا. فنغذ إلى دوائر النفوس، وتحدث عن انعكاسات الجوانب الاقتصادية على اتجاهات الإنسان ونوازع (١٦).

وإذا كان التوحيدي قد أكثر من التشكي والتظلم وادعاء الحرف والسقم والعجز في ثنايا كتبه، فليس ذلك من قبيل الوسواس (١٧) فالظاهرة كانت تملأ عليه كيانه وحسه، وتشغل القطاع الأعظم من الناس، وتمثّل سمة رئيسة من سمات العصر. فإذا جاء في أدبه ما يشعر بالاستجداء وهوان الشخصية، فانما هو في الحقيقة يعكس ما كان يجده

العلماء والأدباء، بل وعامة الناس من معاناة في تحصيل لقمة العيش. ويقدم صورة حية للمفارقات العجيبة في الحياة المعيشية، حيث "أناس يرفلون في الدمقر والديباج، وطبقة لاتكاد تجد مايسنتر عورتها، طبقة تعيش في بدخ وترف، وطبقة لاتكاد تجد ما يمسك رمقها، ويقبض أودها" (١٨) وبحيث يمكن أن نوكد أنه لم يكتب في النثر العربي ما هو أقنوى وأشدّ تعبيرا عن شخصية صاحبه، أو تصوير شخصيات الناس مما كتبه أبو حيان (١٩).

وإذا كان الفقر قد حال بين التوحيدي رفاهة العيش، فقد ساهم في طموحه الفكري واتجاهه نحو مناهل العلم والأدب. وإذا كانت حرفة الوراقة لم تشبع نهمه المادي، فقد كان لها فضل كبير في إثراء نهمه الفكري. فقد أوصلته بعالم الفكر والأدب، فاتصل بأهمّات الكتب، ينسخها، ويدرسها، ويلخصها، ويقتبس منها، كما وصلت به علماء وفلاسفة كبار تعاطوا هذه الحرفة، من أمثال السيرافي ويحيى بن ندي. ووصلته بالخاصة من وزراء العصر وأصحاب السلطان، لاسيما الكتاب والأدباء منهم. هذا إلى جانب أنها أيقظت فيه الحاجة إلى دراسة منظمة على أيدي أساتذة عظام، استقطبوا معارف عصرهم، وأغنوا التراث العربي بنتاج قرائحهم (٢٠)، فمنهم أبو حامد المرورودي، وكان اماما لايشق له غبار في فقه الشافعية (٢١) ومحمد بن علي إسماعيل القفال أوجد عصره في الفقه والكلام والحديث واللغة والأدب (٢٢) والمعاذ بن زكريا النهرواني القاضي، وكان اماما في النحو واللغة وأصناف الأدب متفننا في جميع العلوم (٢٣)، وأبو بكر الشافعي حيث درس عليه الفقه والحديث والقرآن والتصوف واللغة، وأبو سعيد السيرافي أعلم الناس بنحو البصريين (٢٤) وهو في نظر أبي حيان شيخ الشيوخ وامام الأمة في النحو والفقه واللغة

والشعر والعروض والقوافي والقرآن والفرائض والحديث والكلام والحساب والهندسة (٢٥).

والرمانى علي بن عيسى، أحد متكلمي المعتزلة وكان اماما في العربية والأدب. وأبو سليمان السجستاني أدق الأساتذة نظرا وأصفاهم فكرا (٢٦) وكان عالما في المنطق والفلسفة نقل عنه التوحيدي آراء أرسطو وأفلاطون في المقابسات، ويحيى بن عدى المنطقي أوجد دهره في صناعته (٢٧) حيث قرأ التوحيدي عليه كتب اليونان وحضر مجالسه ونعته بالاستاذية (٢٨).

رхан لهذا التنوع في شيوخه واتجاهاتهم الفكرية أثره العظيم في فكر التوحيدي وأدبه، فجعل منه عالما موسوعيا "متفننا في جميع العلوم، من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام" (٢٩) كما جعله بارعا في الفلسفة، فمزج بينها وبين الأدب فكان "فيلسوف الأدباء" وأديب الفلاسفة، ومحقق الكلام ومتكلم المحققين، فرد الدنيا الذي لانظير له ذكاء، رطنة وفصاحة، كثير التحصيل للعلوم في كل فن حفظه، واسع الدراسة والرواية (٣٠) وأضحت ثقافته تمثل أرقى ما وصلت إليه ثقافة أديب أو دقة باحث في عصره، ورزقته سعة اطلاعه قدرة عظيمة على التوغل في أعماق النفس البشرية، فتحدث عن أخلاقيات الانسان ومشاعره وشجونه وهو أجسه، وتناول المعاني الانسانية بمفارقاتها في تحليل عجيب وسير للذات الانسانية لانكاد نجد له نظيرا في النثر العربي (٣١). وإذا كانت ثقافته الواسعة قد خلقت منه شخصية فريدة في الأدب والبحث والتأليف (٣٢)، فقد رسخت أيضا في نفسه لونا من الاعتداد والتباهي بعلمه، وسما به طموحه، فلم يستطع في أحيان كثيرة أن يكتف شعوره بالتفوق ورغبته في أن يتبوأ المكانة اللائقة به (٣٣). ولعله

كان يرد بقوة على هؤلاء الذين بخسوه حقه، وتغافلوا عن فضله وتجاهلوه "ولسـم أراحداً من أهل العلم ذكره في كتاب، ولا دمجـه في ضمن خطاب، وهذا من العجب العجاب" (٣٤).

كان التوحيدي يشعر بمرارة أنه لا يقل عن ابن العميد والصاحب بن عباد وأبي إسحق الصابي وابن سعدان وعبد العزيز بن يوسف. وقد نال هؤلاء حظوة في الدنيا، واستوزر بعضهم، ولم يبلغ هو منزلة كاتب في ديوان إنشاء. وكان طموحه العظيم يدفعه الى التنقل والارتحال بمناحي المملكة الاسلامية سعيا وراء حظه وعيشه وأمله. ودفعه طموحه الى الاتصـال بالوزراء - ولأسيما العلماء والأدباء منهم - فاتصل بالوزير المهلبى وابن العميد وابن عباد وابن سعدان. ويخطئ من يظن أن اتصاله كان لغرض مادي بحت، وأنه كان يتمرغ على أعتاب الوزراء وذوي النفوذ مستجديا ذليلا (٣٥) فالمال لم يكن مطلبه الوحيد، بل كان الى جانبه سعي دائم الى الواجهة والتقدير وعلاء المكانة وحسن المكافأة، وكان كلما يئس من تحقيق هذه الأمور غادر مكان اقامته ذامـا ساخطا (٣٦).

قصد المهلبى، فلم يكرم لديه، ولم يطق المهلبى طريقته في الجدل، واتهم لديه بخبث الاعتقاد والقدح في الشريعة والقول بالتعطيل، وخشي على نفسه فتركه (٣٧). وارتحل الى ابن العميد آملا أن يجد لديه ما يرد غائلة الفقر ويخفف وطأة الحاجة، ويشبع طموحه العلمي - وقد كان يقدر العلماء (٣٨) وعرف بأعزازه للأدباء (٣٩) - وكان أوجد العصر في الكتابة، وكان يدعى الجاحظ الأخير، والأستاذ الرئيس، ويضرب به المثل في البلاغة (٤٠) فلقـ له فيه امتهانا واحتقارا، ربما بسبب

هينته ومظهره (٤١) وربما لعدم قدرته
على مخالطة الكبراء ومحاوره الوزراء (٤٢)،
وربما لأنه ساءه ما عليه التوحيدي من
اعتداد بنفسه واستطالة على غيره .
وقصد صاحب بن عبّاد الوزير العالم
الأديب" وكانت أيامه للعلوية والعلماء
والأدباء والشعراء . وحضرته محط رجالهم،
وموسم فضلائهم، ومترع آمالهم، وأمواله
مصروفة اليهم" (٤٣) فعامله بطلافة واحتقار
واستكثر عليه أن يقف احتراماً لـه
"أقعد فالوراقون أخس أن يقوموا لنا" (٤٤)
وعهد اليه بنفس حرفته - حرفة الشوم،
الوراقة، فأمره بنسخ ثلاثين مجلدة" وأي
إنسان ينسخ هذا القدر وهو يرجو بعهده
أن يمتعه الله ببصره أو ينفعه بيده" (٤٥)،
وبقي في خدمته ثلاث سنوات يكتب وينسخ
دون أن يعطيه درهما واحداً أو ما قيمته
درهم، مما أحفظ التوحيدي عليه فلجأ إلى
ثله (٤٦) .

بلسانه ،ولكنه في ثلبه انما كان
يصف معاناة، ويصور مأساة العلماء في
بلاط الوزراء والأمراء . ولعل مايشفع لهذا
الرأي أنه لم يغفل مزايا من ثلبهم، بل
ذهب يوازن بين عيوبهم ومحاسنهم فـى
للخلق والأدب والعلم والفصاحة، واعتـرف
بفضلهم في كثير من الأحيان^(٥١). وذكر
أن الغاية من ثلب الأمراء أو الوزراء ليس
الاساءة والحقـد وحب التجريح بل "وتأديب
النفس واجتلاب الأنس، وإصلاح الخلق، وتخليص
ماحسن مما قبح"^(٥٢). وأن أشد مايؤلمه
ان يأتي النقص ممن يدعي الكمال أو الكرم
أو العلم " فالنقص ممن يدعي الكمال أشنع،
والحرمان من السيد المأمول فاقره، والجهل
من العالم منكر، والكبيرة ممن يدعي العصمة
جائحة، والبخل ممن يتبرأ منه عجيب"^(٥٣).
والعبارة هنا شديدة الدلالة والإيحاء على
الأمل الذي كان يعمر قلبه، وهو يقصد
عذه الفئة من الوزراء والأمراء طامعا في
مالها وعلمها وكرمها، ثم على الصدمة التي
فوجئ بها، والتي لم يكن يتوقعها، ففرست
في نفسه من المرارة بالقدر الذي كان
فيها من أمل، كما أن طبيعته المجبولة
على الصراحة، المشبعة بروح العلم، تأبى
السكوت على الخطأ أو الرضا بهضم الحقوق في
عصر فيه من التسلط والقهر مايوجب على
العاقل ألايقف صامتا "فمن جعل نفسه شاة
دق عنقه الذئب .. ومن نام على قارعة
الطريق دقتـه الحوافر دقا".^(٥٤) فالفقر
مؤلم حقا، ولا بد للانسان ممن يعينه على
الدهر فنيتـه متهافته، وطينته منتشرة،
وله عادة طالبة وحاجة هاتكة ونفـس
جموح وعمين طموح، وعقل طفيلــــــــــــف
ورأي ضعيف"^(٥٥) وفقر هذه الشاكلة فقير
من جهة العرض، فأما الفقير الحقيقي فالذي
شهواته كثيرة، وان كان كثير المال، كما
أن الغني الطبيعي لا يحتاج الى شيء، وان كان

قليل المال، أي الذي ملك نفسه، وقممع شهوته، وأخذ له ارادته " (٥٦). لقد كان التوحيد يشعر في قرارة نفسه بالحرمان . وكانت أزمة المادة تطارده في حله وترحاله، وكان يشعر فسي أعماقه بتفوقه وامتيازه، وكان يرى أن كبريائه تنثل أمام الكبراء، وطموحه العظيم يتحطم على صخرات من اليأس والبؤس. وكان يشاهد بمرارة ظفر غيره بالمناصب ووصولهم إلى أعلى المراتب، في حين يحرم هو من لقمة العيش مع ذكائه وقدراته الفذة .

كان غيره أكثر قدرة منه على التنفيذ وافتعال العلاقات ومعرفة طرق الوصول، وكان هو أكثر منهم معرفة وثقافة وعلماء. ووصل المفتعلون وحرم الأصلاء. وبين الطموح والحرمان هوة هائلة من التناقضات والمفارقات عاشها التوحيد بنفسه وبأدبه .

٢ - التوحيد بين أنانية الكبراء ونفاق الأدباء .

سعى التوحيد ما استطاع لطلب المثالة بين الناس "ولعقد الريامة بينهم ولمد الجاه عندهم" (٥٧). فحرم من ذلك . ونظر حوله فوجد أن المشكلة عامة، بل هي مسألة المسائل . إنها مشكلة العلماء والأدباء المتفوقين الذين يعانون البؤس والحرمان والتحقير والاهانة، في حين يتبوأ التافهون مراتب الرياسة والشرف في الدنيا . فأستاذة أبو سليمان المنطقي، سيد علماء عصره "بجاجة ماسة إلى رغيث وحولته وقوته قد عجزا عن أجره مسكنه ووجبة غذائه وعشائه" (٥٨).

وجاره وصديقه ابن يعيش اليهودي ظاهر الخصاصة لاصق بالدقعاء (٥٩). وأبو بكر القومسي الفيلسوف "وكان بحرا عجاجا وسراجا وهاجا من الضر والفاقة ومقاساة الشدة بمنزلة عظيمة" (٦٠). وابن المستنير

الذي يتلذذ على السيراني ذو فقر مدقع وضر ظاهر وحالة سيئة وأمر مختل، ومعيشة ضيقة، وكثرة عيال (٦١). والمعافى ابن زكريا النهرواني شاهه تلميذه التوحيدي في جامع الرصافة "وقد نام مستدبر الشمس في يوم شات، وبه من أشراط اقتراب بؤس، أمر عظيم مع غزارة علمه، واتساع أدبه، وفضله المشهور" (٦٢).

وأبو سعيد السيراني "عالم، وشيخ الدنيا. ومقنع أهل الأرض" (٦٣) ينسخ في اليوم عشر ورقات بعشر دراهم ليعيش (٦٤).

والفيلسوف يحيى بن عدي يكتب في اليوم واللييلة مئة ورقة وأكثر (٦٥). وكان التوحيد يشعر شعورا حادا بأن هناك علاقة وجدانية تشده نحو الأدباء والعلماء الفقراء، فهو يأخذ آراءهم، ويعجب بها، ويشاركهم فكرهم ورؤيتهم للحياة تماما كما يشاركهم بؤسهم وشكاواهم. فهو يستمع إلى القومسي الفيلسوف وإلى شكواه من الحياة وسوء الحظ "ما ظننت أن الدنيا ونكدها تبلغ من انسان ما بلغ مني، ان قصدت دجلة لأغتسل منها نضب ماؤها، وان خرجت إلى القفار لأتيمم بالصعيد عاد طلدا أملس، فيرد التوحيد عليه في مناجاة رائعة "ما أعرف لك شريكا فيما أنت عليه وتقلب فيه وتقاسيه سواي، ولقد استولى علي الحرف، وتمكن مني نكد الزمان" (٦٦). ويستمع إلى أبي بكر محمد بن العباس الشاعر الخوارزمي يقول "اللهم نفق سوق الوفاء فقد كسدت، وأصلح قلوب الناس فقد فسدت، ولا تمنني حتى يبور الجهل كما بار العقل، ويموت النقص كما مات العلم"، فيرد التوحيد "اللهم اسمع واستجب، فقد برج الخفاء، وغلب الجفاء، وطال الانتظار، ووقع اليأس، ومرض الأمل وأشفى الرجاء" (٦٧).

والخوارزمي الذي يعجب به التوحيد، ويتأس به رجل عانى من دهره مرارة الجور، ورأى الناس يقدمون عليه بديع

الزمان وهو لدن العود غصّ الالهـباب .
 والتوحيدى بترديد شكاته رأى فيه نفسه،
 وقد قدم الناس عليه أمثال ابن عباد (٦٨) .
 وكان التوحيدى يشق عليه ما تعاني
 هذه الفئة من العلماء ، ويكاد يقتنع أن
 الأمر في بؤسهم وشقائهم انما يعود الى
 أولى الأمر من الوزراء والأمراء ، الذين لا
 يكفونهم عيشهم ، ولا يقدمون لهم ما يسد
 حاجتهم ، ليتفرغوا الى علمهم وأدبهم .
 كما كانت تشق عليه هذه المزاجية التي
 تتحكم بالأمراء والوزراء ، فتجعلهم
 يعيشون في أنانية مطلقة ، وتتحكم بهم
 المادة والطمع وحب التزلف . وتقودهم الى
 ازدراء العلماء ومعاملتهم باحتقار .
 فالصاحب بن عباد شديد السفه " عجيب
 المناقضة ، سريع التحول من هيئة الى هيئة
 مستقبلا للأحرار بكل فرية وفاحشة . يستمع
 للعلماء والشعراء ويوهمهم بالعطاء السخي ،
 ثم ينهال عليهم شتما وتوبيخا ، ويأمر
 بحبسهم وضربهم (٦٩) . وابن العميد يطرد
 في عشية من عشايا رمضان شاعرا غريبا
 صائما لا يجد مكانا ينام فيه ، ويمدحه
 شاعر من الكرخ ، فلا يجيزه رغم توسل الشاعر
 والحاحه ومطالبته بحقه أمام الحضور (٧٠) .
 ويجتاز به أبو إسحق الفارسي ، وكان من
 غلمان أبي سعيد السيرافي ، وكان ملما
 بالكتاب ، وقرض الشعر ، وصف وأملى وشرح
 وتكلم في العروض والقوافي والمعنى ، وناقض
 المتنبي ، وحفظ الطم والرم فما زوده درهما
 ولا افتقده برغيف بعد أن أذن له ، وسمع
 كلامه ، وعرف فضله ، واستبان سعته (٧١) .
 والوزير ابن العارض يعلم تماما درجة
 ابي سليمان المنطقي في العلم والحكمة ،
 ومع ذلك لا يدينه من مجلسه ولا يصبر
 عليه لعيب لحق بعينه (٧٢) .
 لقد سيطرت نظرة الاستعلاء على
 الأمراء والوزراء والقادرين على العطاء ،
 فشمت نفوسهم ، ففرقوا في بحر أنفسهم ،

ولم يعودوا ينظرون الى بني جنسهم (٧٣) .
 وهذه الأنانية المفرطة والبخل ، رغم القدرة
 على العطاء ، خلقا في نفوسهم حب الرياء ،
 بل والاستمتاع بالتملق ، فلم يعودوا
 يستمتعون بطعم الولاية الا بما يسمعونـه
 من نفاق واطراء (٧٤) .

وقد فزع التوحيدى من هذه الظاهرة ،
 وكررها في أكثر من مكان في كتبه ، فقد
 رأى أن انعكاسها على الأدب والعلم خطير ،
 فقد أفسدت البيان والبلاغة على الناس (٧٥) .
 وكان لها تأثيرها في انحطاط الأدب ،
 فابتعد عن غايته المثلى ، واتجه نحو
 ارضاء هذه الفئة بالعمارة والنفاق .
 فابن عباد لم يعد يرضيه من العلماء
 علمهم ، ولامن الأدباء أدبهم ، بل " ان كذبوه ،
 وخدعوه ، وموهوا عليه ، ونافقوه ، وتعلقوه
 قرّبهـم وأدناهم ، وأكرمهم وأعطاهم ، وان
 صدقوه ، وماتنوه ، وثبتوا له ، أبعدهم ،
 وأقصاهم ، وحرّمهم ، وأخزاهم " (٧٦) . فاقبل
 العلماء عليه " يدعي له التبريز في كل
 علم ، وهو لا يعرف النحر إلّا ما حل منه ، ومن
 الكلام إلّا ما وضع ، ثم هو في اللغة على
 تصحيف شديد ، وتخليط كثير ، وفي الأخبار على
 تمويه لا يخفى على مميز " (٧٧) ولم يعد
 يتقدم عنده إلّا " الهوج الطغام الذين
 يجوبون الدنيا ، ويدخلون كل ميدان ،
 ويسخرون منه ، فيقولون ، فعل مولانا ، وكان
 مولانا ، وما رأينا مثل مولانا (٧٨) .

وابن العميد ينهج نفس النهج ، ويسلك
 نفس السلوك ، فيطرب لذل الشعراء وتوسلهم
 لعطائه " أيها الرئيس : قد لزمت فناءك
 لزوم الظل ، وذللت لك ذل النعل ، وخدمت
 أمني فيك خدمة ناصح لنفس فيما التمسست
 من الصلة والجائزة ، ولك فيما أوفدت عليك
 من الشناء والمدحة " (٧٩) .

واستشرى داء النفاق الى الموفيين
 والزهاد مع تدينهم وتقشفهم ، ورغم علمهم
 برقاعة من يمدحون أو يتملقون (٨٠) .

وإذا كان التوحيدي يرى أن أنانية
الأمراء والوزراء وذوي الشأن تكمن خلف
موجة التفاق الأدبي والعلمي، فإنه لا ينكر
أثر الفقر في هذه الظاهرة وتفشيها، "فجرة
الحرمان أمرٌ من جرعة الشكل، وضياع التأمل
أمضٌ من الموت، وخدمة من لم يجعله الله
أهلاً أشد من الفقر" (٨١). ويرى أن الفقر
بمآسيه، يدفع الأديب دفعا إلى المبالغة
والتهويل وقلب الصور وإخفاء الحقائق،
فيقدم على هذا مع ألمه الشديد بسوء ما
يفعل " وصاحب الفقر أن مدح فرط، وإن ذم
أسقط، وإن عمل صالحا أحبط، وإن ركب
شيئا خلط، ولم أر شيئا أكشف لغطاء الأديب
ولا أنشف لعماء وجهه، ولا أذعر لسرب حياته
منه؛ وأن الحر الآنف والكريم المتعيف من
تعاساته والتجلد عليه، لفي شغل شاغل
وموت مائت". (٨٢) فليس هناك أشد من خطر
الفقر في الأدب والدين وعزة النفس، إذ يجعل
الشاعر " يجمع دينه ومروءته في قرن
تهاونا بهما، وعجزا عن تدبيرهما، فهو
لا يكثر كيف أجاب سائلا، وكيف أبطل
مجيبا، وكيف ذم كاذبا ومتحاملا، وكيف
مدح مواربا ومختلا". (٨٣)

من الحكماء الى الفقراء بضرورة التحلي
بالصبر" فليس المضطر كالمختار، ولا المحرج
كالسليم، ولا الموفور كالموقور" (٨٨).

الحادة ورغبتة بالتملق والتفاق. وحزن في نفسه أن يستخف بأدبه، فتجراً على صاحب في مجلسه، وتباهى بعلمه، وطعن في رسائله^(٩٤) وسخط على أسلوبه في السجع^(٩٥) واستخدام الغريب والعويص^(٩٦)، وعجمته المخلوطة وعربيته المخلوطة بالتعجيم^(٩٧). وتجاوز الحد في مجلس ابن سعدان، فتحامل على ندائه ممن العلماء والأدباء الذين ألفوا التزللف والتودد من أجل المال^(٩٨). ورفض أن يعمل لديه ساعياً ناقلاً يفشي ما يقوله العلماء^(٩٩). وطلب من الوزير ابن العارض أن يؤذن له في كاف المخاطبة وتساء المواجهة في حديثه معه "حتى يركب جدد القول من غير تقيّة ولا تحاشي ولا محاوية ولا انحياس"^(١٠٠).

ولم تكن تصرفات أبي حيان في مجالس الكبراء على هذا النحو بسبب عدم لياقة في التحدث إلى الكبراء أو لسذاجة وقلّة دراية بآداب المجالس^(١٠١)، بل هي في حقيقة الأمر بذور ثورة كانت تتعمل في نفسه تجاه ما يرى في مجالس الوزراء من محن وعيب واستهتار بالعلم وأهله. ثم ما يراه من نفاق ورياء وتزلف يفصل بين الأديب وأدبه، ويقتل مواهب الأدباء، ويجعل الأدب خادماً لأنانية الأمراء بدلاً من أن يكون في صالح المجموع معبراً عن المثال.

وأخذت بذور ثورته النفسية تنمو، وتمتدح، وتتفاعل، لتشكل لديه نظرة معينة ومسلوكاً خاصاً تجاه الحياة والأحياء.

٣- أزمته النفسية وأبعادها.

أخفق التوحيدي في الحصول على ما يريه في الدنيا، فافتقد المال والجاه والتقدير، ورأى فقر أصدقائه من العلماء والفلاسفة واضطهادهم، وانهارت في نظره

المثاليات، فترك هذا جميعه اثراً عميقاً في نفسيته، وكل له انعكاسات على فكره ومفاهيمه. بل إن هذا في الحقيقة هو ما شكّل أزمته النفسية وبالتالي رؤيته للحياة والأحياء. لقد جعل منه الاخفاق انساناً منطوياً على نفسه. وأمل لديه مع مرور الزمن حقداً وبغضاً ومرارة ونفرة من الأحياء والمجتمع. ودعم لديه الاحساس بالكبرياء والاستعلاء. وإذا التوحيدي الذي كان يبحث عن المال والجاه شاكياً صرف الزمان، يسخط على الجاه وعلى الرئاسة وعلى المال ويعتبرها مهالك الخلق، ويدعو الله أن يكره له الدنيا، ويرغبه في التقوى^(١٠٢). وأخذت نظراته إلى البشر تتم بالازدراء والاحتقار، وقوي في نفسه شعور الانطواء "فقد أميت غريب الحال، غريب الفط، غريب الخلق، متأنساً بالوحشة، قانعاً بالوحدة، معتاداً للصمت، ملازماً للحيرة، متحملاً للأذى، يائساً من جميع من أرى"^(١٠٣).

وكثرت الشكوى في كتاباته، تنقل قلقه النفسي واضطرابه المعادي، وتمثل القلق الانساني عامة، والاحساس بالضيق في عصر يقوم على المفارقات والظلم والاضطهاد، وأخذت كتابته تتمثل أكثر فأكثر بالانسان، لتعبر عن أفكاره وهواجسه ومشاعره، وحفلت بألوان التعبير عن حياة الانسان وتجاربه وأشواق النفس الانسانية وتطلعاتها^(١٠٤). ولعل هذا القلق الانساني وما يشيع فيه ممن حقد وشورة على الحياة والأحياء هو سر من أسرار نبوغ التوحيدي وابداعه^(١٠٥). ساءت نظرة التوحيدي في عصره وفي ولاته وفي أناسه، فانكفأ على نفسه، يمحّصها، وينقّب عما دقّ وخفي من مشاعرها، والتفت إلى الذات الانسانية، قاستقرأ خبايا النفوس ومزور خلجاتها وأخيلتها وشوفاتها

دون خوف أو تردد (١٠٦). لم ينعم بمشاعر المودة والصداقة داخل أسرة خاصة به ، وافتقد المودة داخل مجتمعه وأبنائه طبقته ، فعاش جوعاً عاطفياً وترسخ في نفسه ألم مضم ، أخذ يبدو في تساؤلاته ، لدى حديثه عن المداقة والمديق ، والعلاقات بين معاصريه ، وفي تصويره للنفسيات المختلفة ، في اقترابها وبعدها وتقابلها وصدها (١٠٧). وفي هذه الحيرة التي تلازمه في أحاديثه إلى مسكويه في الهوامل والشوامل ، وفي أحاديثه في المقابسات . وسادت كتابته مسحة تشاؤمية كثيفة تجاه العلاقات الانسانية ، فساء ظنه بالأصدقاء حتى أنكر وجودهم " وقبل كل شيء ينبغي أن نشق بأنفسه لاصديق ولا من يتشبه بالمديق " (١٠٨) .

وعمت نظراته التشاؤمية في المداقة جميع الفئات من ملوك ، وأصحاب ضياع ، وتجار ، وأصحاب دين وورع ، وكتاب وأهل علم (١٠٩) . وامتدت نقمته لتشمل العامة ، فأبدى كراهيته وسخطه نحوهم - رغم أنهم كانوا يشاركونه السعي إلى الرغيف - ربما كان ذلك لابتعادهم عن مستوى تفكيره ، كما أنهم يفتون عليه مجالسة أهل الحكمة ، فهم " همج رعاع لاعقول لهم ، أولهم أشياء شبيهة بالعقول " (١١٠) . ولم تلبث هذه النظرة أن أخذت تتغير في المرحلة الأخيرة من صلاته بالوزراء ، كما يبدو من عطفه عليهم وتقديسه لهم لمصالحهم في بلاط ابن سعدان (١١١) .

وأحلّ التوحيدى صداقة العقل محل صداقة الانسان ، وفي صداقة العقل سعادة ورشد ونيل وأمان ، أما الصديق الانسان " فان وجدته لم يف لك بما يفي به العقل ، ولم يبلغ بك ما بلغ العقل ، وربما أتعبك ، وربما خربك وربما أشقاك " (١١٢) . وكان لنفسية التوحيدى المتشائمة

الساخطة أن تعبر عن سخطها واشمئزازها ويأسها عن طريق الأدب ، فخرجت من التنظير إلى التطبيق ، ووجدت في الأدب الساخر سلاحاً فاعلاً ، توظفه لنقل أحاسيسها ونظراتها من الوجود والأحياء والعلاقات ، فأخذ في تهكمه يتلمس الخصائص الخفية الموجودة في الأشخاص باحثاً عن كل ما يرمز إلى التدني الخلقي ، ويشير إلى الحطسة والنذالة (١١٣) فابن شاهويه " شيخ ازراء وصاحب مخرقة ، وكذب ظاهر ، كثير الإيهام ، شديد التعميه ، لا يرجع إلى ود صادق ، ولا إلى عقد صحيح ، وعهد محفوظ . . . " (١١٤) . وأما ابن مكيخا صاحب ديوان عضد الدولة فهو " أرعن خسيس ، ماجاء يوماً بخير قط ، ولا في رأي ولا في عمل ولا في توسط ، وأصحابنا يلقونه بقفا ، وهو منهمك بين اللذائذ ، همه أن يتحسن دن الشراب في نفس أو نفسين ، ثم يقط كالجذع اليابس للسنان ولا انسان " (١١٥) . فإذا مامدح شاب مدحه شيء من الهجاء " وأما مسكويه ، فلطيف الأخذ ، رطب الأطراف ، رقيق الحواشي ، قليل السكب ، بطيء السبك ، مشهور المعاني ، كثير التواني ، شديد التوقي ، ضعيف الترقى ، يرد أكثر مما يصدر ، ويتناول جهده ، ثم يقصر ويطير بعيداً ، ويقع قريباً " (١١٦) . فإذا تحدث عن أحبهم لم تخل صوره من اللعن . " أما السلامي فهو حلو الكلام ، متسق النظام كأنما يبسم عن شجر الغمام ، خفي السرقعة لطيف الأخذ ، واسع المذهب لطيف المغفارس جميل الملابس " (١١٧) .

ولعل أبعد صوره الساخرة تأثيراً ، هو ما قدمه في كتابه مثالب الوزراء ، فقد حملت صوره الساخرة تحليلاً رائعاً للشخصية التي تحتوي وراء المنصب السامي والأعطيات فجاء كتابه ثورة على علاقة العبودية بين الأديب ومن يفضل عليه بالانفاق (١١٨) . ويبدو أن ما جعل صور التوحيدى بعيدة

التأثير هو اعتماده الصور المادية ، ذلك أنه رأى " أن ملح هذه الخطابة ينبتر وطربها ينقص في الرواية دون مشاهدة الحال وسماع اللفظ، وملاحة الشكل في التحرك والتثني والترنخ والتهادي ومد اليد، وليّ العنق ، وهز الرأس والاكتاف ، واستعمال الأعضاء والمفاصل" (١١٩) . فإذا ماصور ابن عبّاد على لسان ابن العميد قال " أحس أن عيني قد ركبتا من رثيق ، وعنقه عمل بلولب ... فانه كان ظريف التثني والتلوي ، شديد التفكك والتنقل ، كثير التعرج والتموج في شكل المرأة المومسة والفاجرة الماجنة" (١٢٠) . وإذا ما تحدث عن اعجاب ابن عباد بالمدح ونفاس المتزلفين قدم صورا ناطقة بهذا " فتراه عند هذا الهذر وأشباهه يتلوى ويتبسم ، ويظهر فرحا ، ويتقم ... ويتشاكس ، ويتحامل ، ويلوي خدقه ، ويبلغ ريقه ... ويتهالك ويتمالك ويتقابل ويتمايل ويحاكي المومسات" (١٢١) . فإذا ماصوره ينشد ، حرص على المزج بين ملامح الوجه وحركات الجسم ، ليوفر أكبر قدر من عناصر الاضحاك " كان صاحب ينشد ، وهو يلوي رقبتة ، وتجمّط خدقته ، وينزى أطراف منكبه ، ويتشاكل ويتمايل ، كأنه الذي يتخبطه الشيطان من المم" (١٢٢) . فإذا ما تناول طريقته في السجع وتكلفه ذلك قال : " يأتي بالمسجع في اثر كلامه ، مع روية طويلة ، وأنفاس مديدة ، وحشرجة صدر ، وانتفاخ منخريه ، والتواء شديقه ، وتعويج عنقه واللعب بعنقه" (١٢٣) . وإذا كان التوحيدي قد أدرك ما في الوجه وحركات الجسم من عناصر اضحاك ، فانه أدرك أيضا ما تحمله الكلمات والجمل من عناصر ضاحكة اذا حملت معاني سخيفة وقيلت بصورة آكية (١٢٤) .

وخلاصة القول ان هذا اللون من الأدب

الساخر كان منفصلا يبت التوحيدي من خلاله أشجانه وهمومه ، كما مكنه من أن ينفذ الى عالم النفس يستكشفها ، ويتعمق أسرارها ، ويظهر عيوبها أو محاسنها في بيان بعيد التأثير .

٤ - غربته النفسية .

فقد التوحيدي الصلة بينه وبين ذوي الجاه ، وبينه وبين العامة ، وترسخ في قرارة نفسه أن كل المقاييس الأصلية في النظر الى الدين والخلق قد اهتزت ، وحل مكانها نظرة من اللامبالاة وعدم الاكتراث . واستشرى الفساد الاجتماعي ، فعم جميع الطبقات . وتعددت المذاهب ، وفسد المتكلمون . وكثر الشك والارتياب بين طبقات المفكرين . وأحس احساسا قويا بأن النزعات الجديدة في النظر الى اللغة والأدب أخذت - بتشجيع من القائمين على الأمر - تحل مكان النظرات القديمة ، رغم ما في الجديد من سقوط ولحن وانحدار ، ووجد أن كل محاولاته الفردية ونزعاته في تثبيت روح المحافظة وإيقاف هذا المد الجارف ذهبت عبثا . لقد حاول أن يقيم ارتباطه بالناس على أساس عقلي دون تعصب لمذهب أو معتقد ، فلم يسلم من الاتهام في دينه ومعتقد ، فُرُمسي بالكفر والزندقة والاحاد (١٢٥) ، وهي تهمة أشد ايلاما من البؤس والفقر ، لأنها تبغضه الى الخاصة والعامة ، وتلقي على نتاجه غبارا من الشك ، وتطوح بمكانته الأدبية والعلمية (١٢٦) . والتحق بركب الفلاسفة ، لعله يجد في الفلسفة شفاء لما في نفسه من تساؤلات حول المشكلات الاجتماعية والدقائق الفكرية ، فأرضته الى حين ، وفلسفت له عالمه الواقعي المولم ، فعرفته شرف النفس الانسانية والشعور الكامل بالمسؤولية الملقة على عاتقه من حيث هو انسان (١٢٧) ، ولكنها

عجزت عن حل سيدة المشكلات او "ملكة المسائل" عنده وهي "حرمان الغاضل وادراك الناقص" (١٢٨). ولم يستطع أساتذته من المتصوفة والفلاسفة بمثالياتهم وتشفههم - أن يشبعوا حاجته حول هذه المشكلة .

ووجد التوحيدي نفسه غريبا في كل شيء، في أدبه وخلقه، في تدينه وتصوفه، في فلسفته وفنه . وأحس احساسا حادا بأنه غريب عن أهل عصره مرتفع عن زمانه ، متقدم عليهم (١٢٩) . وشعر بانقطاع الصلة بينه وبين الوجود، وبينه وبين الأحياء . ووجد أن كتبه هي التي تربطه بعصره وبالأحياء فيه ، فانقضت عليها، يحرقها، ويغسلها بالماء، وقلبه يتقطع ألما وحسرة (١٣٠) . ويعتذر إلى صديقه أبي سهل علي بن محمد، عندما يلومه على ذلك رسالة (١٣١) تفيض ألما يصور شقاءه وبلواه بالخاص، وسوء ظنه بهم ، كما يصور فشل في الحياة ، وأن علمه قد قصر عمله عنه ، فمن النفاق أن تظل كتبه تدعو إلى شيء لم يعمل صاحبها به . فضلا عن أنها شواهد تعذبه باظهارها الفارق بين ما أملته وما صار إليه . لقد بذل فيها عسارة نفسه ، وأودع فيها كل أصناف العلم ، وكان على شعور قوي بنفاستها فلم يلق من الناس جزاء . كما أنه يشق عليه أن يتركها لقوم يتلاعبون بها، ويدنسونه عرضه اذا نظروا فيها (١٣٢) .

وأخذ التوحيدي ينخلع عن عصره وأهل عصره ، ليعيش في ذاته ، يمحصها ويحكم عليها فيصدق في تمحيصه ، ويقسو في حكمه ، ويكشف عن معاناة نفسه وخفاياها وأطوارها في تأمل صوفي "أما حالي فسيئة كيغما قلبتها، لأن الدنيا لم تؤاتني لأكون من الخائفين فيها، والآخرة لم تغلب علي فأكون من العاملين لها .

وأما ظاهري وباطني، فما أشد اشتباههما، لأنني في أحدهما متلطف تلطخا، لا يقربني من أجله أحد ، وفي الآخر متبذخ تبذخا لا يهتدي فيه إلى رشد . وأما سري وعلاييتي فممقوتان بعين الحق، لخلوهما من علامات الصدق، ودنوهما من عوائق الرق ، وأما سكوني وحركتي فأفتتان محيطتان بي ، لأنني لم أجد في أحدهما خلاوة النجوى، ولا أعرف في الآخر من مرارة الشكوى . وأما انتباهي ورقدتي فما أفرق بينهما إلا بالاسم الجارِي على العادة ، ولا أجمع بينهما إلا بالوهم دون الإرادة ، وأما قراري واضطرابي، فقد ارتهني الاضطراب حتى لم يدع في فضل للقرار ، وغالب ظني أني قد علققت به ، لأنه لا طمع لي بالفكك ، ولا انتظار عندي للانفكك . وأما يقيني وارتياحي فلي يقين، ولكن في درك الشقاء ، فمن يقينه هكذا ، كيف يكون خبره عن الارتياح ! (١٣٣) .

وخلص التوحيدي في هذه المرحلة من مطامع الدنيا ، وهدأت حاجات جسمه ، واستيقظت حاجات روحه ، فاتجه إلى الله منقطعا إليه ، وأصبح الفقر لديه محنة يختبر بها الله خلقه ، ليشعرهم بنقصه ، فيتضرعوا إليه . (١٣٤) وابتعد عن الذم والشلب والتحرش ، ولم يعد يعرض لآراء الفلاسفة والمتكلمين والأدباء ، بل اتجه إلى الحمد والتقديس والانقطاع والتبتل ، وسما شعوره بالحرمان المادي ، ليتحول إلى شعور بالحرمان من استجلاء حقيقة الحق ، وتحولت الشكوى من المخلوق إلى الخالق ، ومن طلب القوت إلى طلب المعرفة (١٣٥) ، وأخذت شكل قلق نحو الاستشراق العلوي والاشراق السماوي ، قلق الروح المتحفزة إلى عالم الكمال والخير (١٣٦) ، ودلفت نفسه إلى إيمان مستسلم ، فيه

مرارة اليأس وأمل الخائب "وفيه عزوف عميق عما يربطه بالعاجلة، واستدعاء متوسل لكل مائل منه بوارق الآجلة، وفيه شعور بهوة هائلة تغمر فاهها في نسج الوجود، وفيه طعم الرماد يتذوقه المرء في كل عبارة وإشارة" (١٣٠). وعاش التوحيدي في وحدة ذاتية مطلقة يحملها في داخل نفسه، ولم يعد الوطن المادي له معنى إذا قيس بالوطن الروحي الذي تقطنه النفوس الشاردة (١٣١). وأخذ يتأصل لديه مفهوم الاغتراب - الذي لازمه منذ مبتدأ حياته - ليشكل لديه فلسفة أوشبه فلسفة تحمل بعدا صوفيا، فالغريب الحق ليس ذلك الذي "نأى عن وطن بني بالماء والطين، وبعد آلاف له، عهدهم الخشونة واللين" وإنما هو ذلك الذي طالت غربته في وطنه، وقل حظه ونصيبه من حبيبه وسكنه" (١٣٢).

فالغربة الحقيقية تكمن في غربة النفس واحساسها الداخلي بالجفوة والانطواء "وقد قيل الغريب من جفاء الحبيب، وأنا أقول بل الغريب من واصله الحبيب، بل الغريب من تغافل عنه الرقيب، بل الغريب من حبابه الشريب، بل الغريب من نوذي من قريب، بل الغريب من هو في غربته غريب، بل الغريب من ليس له نسيب، بل الغريب من ليس له من الحق نصيب" (١٤٠). والغريب في نظر التوحيدي هو من يفقد الصلة بالحياة والأحياء، فيصبح غريبا في أقواله وأعماله وأدياره وأقباله، ينطبق وصفه بالمحنة بعد المحنة ويبدل عنوانه على الفتنة إن حصر كان غائبا، وإن غاب كان حاضرا، إن رأيته لم تعرفه، وإن لم تره تستعرفه (١٤١). هو من طينة مختلفة عن طينة الانسان العادي مطارد دائما مرفوض أبدا "إذا ذكر الحق هجر، وإذا دعا إلى الحق زجر، إذا أسند كذب

وإذا تظاهر عذب... طال بلاؤه من غير ذنب، واشتد ضرره من غير تقصير، وعظم عناؤه من غير جدوى... إذا قال لم يسمعوا قوله، وإذا رأوه لم يدوروا حوله... إذا تنفس أحرقه الأسى والأسف، وإن كتم كمدته الحزن واللهف... إذا أقبل لم يوسع له، وإذا أعرض لم يسأل عنه... إذا سأل لم يُعط، وإن سكت لم يبدأ... إذا عطس لم يشمت، وإن مرض لم يُتفقَد... إذا زار أُغلق دونه الباب، وإن استأذن لم يرفع له الحجاب... إذا نادى لم يجب وإن هادى لم يحب" (١٤٢) ويخلع التوحيدي على الغريب تشوفه وتطلعه ولباسه سمات الصوفيين وحالتهم "الغريب في الجملة من كل حرقه، وبعضه فرقة، ولباسه أسف، ونهاره لهف، وغداه حزن، وعشاه شجن، وآراؤه ظنن، وجميعه فتن، ومغرقه محن، وسره علن، وخوفه وطن... الغريب من لبسته خرقه، وأكلته سلقه، وهجعتة خفقة" (١٤٣).

وتلتقي فلسفته في الاغتراب التقاء تاما بآراء المتصوفة، فالغربة في حقيقتها تهالك في ذكر الله، وتوجه إليه وفناء فيه: "الغريب من أخبر عن الله بأنباء الغيب داعيا إليه، بل الغريب من تهالك في ذكر الله متوكلا عليه، بل الغريب من توجه إلى الله خاليا من سواه، بل الغريب من وهب نفسه لله متعرضا لجذواه" (١٤٤).

والتوحيدي في هذا اللون من أدب اغتراب النفس، يكشف عن حس المرهف، وقدرته العجيبة على تصوير العجز الإنساني، وحيرة البشرية أمام القسوة الإلهية الأعظم، وهو في تمحيصه لذاته وفي شكواه وتشوفه "ينفذ من الظاهر إلى الباطن، فلا يتخذ من الأحداث إلامورا

وعلاقات على الجوهر والباطن في أعماق الوجود كله ، فالآلم الذي يحياه في لحظة ، هو ألم مرفوع الى أسس السرمدية ، والانفعال الذي ينطبع في نفسه من موضوع محدود سرعان ما يفتح على الوجود الواحد بأسره " (١٤٥) .

وهكذا كانت حياة التوحيدي ، رحلة آلام ، تصور مأساة الفرد في نفسه ، ومآساته في مجتمعه . ومكّنه حسه المرهف ، وشفافية نفسه من أن يعكس أوضاعه الخاصة ، وأوضاع عصره في مختلف الحالات والمراحل .

- فاذا حفل شعره بالشكوى والآلم والاضطراب . فانما هو في الحقيقة

ينقل القلق الانساني في عالم المتناقضات ، محاولا أن يشق طريقا واضح السمات والمعالم لنفسه ولغيره .

واذا كانت حياته تاريخا لخيبة متجددة متعددة ، فقد نقل حياة عصره ، وحياة أمة ، في فترة حرجة ، داخل الشك والغموض والتردد علماءها وأدباءها .

لقد عمقت مآساته احساسه بمأساة جيله ، فجاء أدبه وجدانيا معبرا عن آلام نفسه وآلام أمته ، مصورا لشقاء الانسان في أموره الحياتية وشؤونه الفكرية على اختلاف العصور .

الاحـالات

- (١) ابن الأثير (عماد الدين) (البداية والنهاية في التاريخ) ج ١١ ص ٢٣٢ وما بعدها .
- (٢) ابن الجوزي (المنتظم في تاريخ الملوك والأمم) ج ٨ ص ٢١
- (٣) التوحيدى أبو حيان (أخلاق الوزيرين) ص ٨٣ .
- التنوخى (نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة) ج ١ ص ٣٥١ .
- ابن تغرى بردى (النجوم الزاهرة في تاريخ ملوك مصر والقاهرة) ج ٣ ص ٢٧٣ .
- مسكويه (تجارب الأمم) ج ٢ ص ٢٠٣ .
- ابن الأثير عز الدين (الكامل في التاريخ) ج ٨ ص ٦١٩ .
- (٤) التوحيدى، أبو حيان (الامتناع والمؤانسة) ج ١ ص ١٨، ج ٢ ص ١٩٤ .
- (٥) التوحيدى، أبو حيان (الامتناع والمؤانسة) ج ٢ ص ٢ .
- (٦) الكيلانى، ابراهيم (من كتاب الامتناع والمؤانسة) ص ٩ .
- كرد، محمد (أمرأء البيان) ص ٤٨٨ .
- (٧) التوحيدى، أبو حيان (المقابسات) ص ٥٣ .
- (٨) التوحيدى، أبو حيان (الامتناع والمؤانسة) ج ١ ص ٢ .
- (٩) ياقوت الحموى (معجم الأدباء) ج ١٥ ص ١٦ .
- (١٠) المصدر السابق ١٣/١٥ .
- (١١) التوحيدى أبو حيان (الامتناع والمؤانسة) ج ٣ ص ٢٢٧ .
- (١٢) المصدر السابق ١٤٣/٢ .
- (١٣) ياقوت الحموى (معجم الأدباء) ٢٣/١٥ .
- (١٤) المصدر السابق ٣٧/١٥ .
- (١٥) التوحيدى، أبو حيان (أخلاق الوزيرين) ص ٤٩٧ .
- (١٦) التوحيدى، أبو حيان (الامتناع والمؤانسة) ج ٣ ص - ٨٥ .
- (١٧) محيى الدين ، عبدالرزاق (أبوحيان التوحيدى، سيرته - آثاره) ص ٢٨ .
- (١٨) التنوخى (نشوار المحاضرة) ٣٥١/١ .
- (١٩) متز، آدم (الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى) ج ١ ص ٤١٦ .
- (٢٠) التوحيدى، أبوحيان (البصائر والذخائر) المقدمة ب .
- (٢١) السبكى (طبقات الشافعية) ج ٣ ص ١٢ .
- (٢٢) المراغى، عبد الله (الفتح المبين فى طبقات الأصوليين) ص ٣٠١ .
- (٢٣) ابن خلكان (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) ج ٥ ص ٢٢١ .
- (٢٤) المصدر السابق ٧٨/٢ .
- (٢٥) ياقوت الحموى (معجم الأدباء) ١٥٠/٨ .
- (٢٦) التوحيدى، أبوحيان (الامتناع والمؤانسة) ٢٣/٢، ٢٣/١ .
- (٢٧) ابن النديم (الفهرست) ص ٣٢٢ .
- (٢٨) التوحيدى، أبوحيان (الامتناع والمؤانسة) ٣٨/٢ .
- (٢٩) ياقوت الحموى (معجم الأدباء) ٥/١٥ .
- (٣٠) المصدر السابق ٥/١٥ .
- (٣١) ينظر فى هذه المعاني ما أورده التوحيدى فى (الامتناع والمؤانسة) ١٤٧/١، ٢٠٦/١ .
- (٣٢) ذكر ياقوت فى (معجم الأدباء ٧/١٥) أن له تصانيف كثيرة، ذكر منها (١٧) تصنيفاً .
- (٣٣) المرجع السابق ٦/١٥ .
- (٣٤) التوحيدى، أبوحيان (الامتناع والمؤانسة) ٢٩، ٢٠/١ .
- ياقوت الحموى (معجم الأدباء) ٢٩/١٥ .
- والتوحيدى (الهوامل والشوامل) ص ٢٤ .
- (٣٥) محيى الدين، عبدالرزاق (أبوحيان التوحيدى) ص ٣٦ .
- (٣٦) الحوفى، أحمد (أبوحيان التوحيدى) ص ١٢٨ .
- (٣٧) السبكى (طبقات الشافعية) ٢٨٧/٥ .
- (٣٨) ياقوت الحموى (معجم الأدباء) ٣٦/١٥ .

- (٣٩) المصدر السابق ٢١٣/١٤ .
- (٤٠) الشعالبي (يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر) ج ٣ ص ١٥٤ دار الفكر - بيروت .
- (٤١) ياقوت الحموي (معجم الأدباء) ٥/١٥ .
- (٤٢) التوحيد، أبوحيان (الامتناع والموانسة) ٥/١ .
- (٤٣) الشعالبي (يتيمة الدهر) ١٨٩/٣ .
- (٤٤) التوحيد، أبوحيان (أخلاق الوزيرين) ١٤١ .
- (٤٥) المصدر السابق ٤٩٤ .
- (٤٦) ياقوت الحموي، معجم الأدباء ٣٢/١٥ .
- (٤٧) التوحيد، أبوحيان (الامتناع والموانسة) ٦/١ .
- (٤٨) تنظر رسالته الى ابن العميد في (معجم الأدباء ٣٧/١٥) ورسالته الى أبي الوفاء المهندس في (الامتناع والموانسة ٢٢٦/٣) وينظر دفاع أحمد الحوافي عن التوحيد في كتاب (أبي حيان التوحيد ١٤٩) .
- (٤٩) ياقوت الحموي، (معجم الأدباء) ٦/١٥ .
- (٥٠) الكيلاني، إبراهيم (أبوحيان التوحيد) ٥١ .
- (٥١) ياقوت الحموي (معجم الأدباء) ٦/١٤ .
- ٢١٣/١٤، ٢١٦، ٢١٧، ٣٦/٤٤ .
- التوحيد، أبوحيان (أخلاق الوزيرين ٢٣١)
- (الامتناع والموانسة ١١، ٨/١، ٢٤٢/٣)
- (٥٢) التوحيد، أبوحيان (أخلاق الوزيرين ١٣)
- (٥٣) المصدر السابق ٥٣١ .
- (٥٤) المصدر نفسه ١١ .
- (٥٥) التوحيد، أبوحيان (الامتناع والموانسة ١٤/١) .
- (٥٦) المصدر السابق ٩١/٢ .
- (٥٧) ياقوت الحموي (معجم الأدباء ١٨/١٥)
- (٥٨) التوحيد، أبوحيان (الامتناع والموانسة ٣١/١) .
- (٥٩) المصدر السابق ١٠٥/١٠ .
- (٦٠) ياقوت الحموي (معجم الأدباء ١٠/١٥) .
- (٦١) المصدر السابق، ١٧٧/٨ .
- (٦٢) المصدر نفسه ١٥٢/١٩ .
- (٦٣) التوحيد، أبوحيان (المقابسات ٢٣) .
- (٦٤) البغداد، تاريخ بغداد .
- (٦٥) ابن النديم، الفهرست ٣٢٢ .
- (٦٦) ياقوت الحموي، معجم الأدباء ١٣/١٥ .
- (٦٧) التوحيد، أبوحيان (الصدقة والصديق) ص ٢
- (٦٨) مبارك، زكي (النشر الغني في القرن الرابع الهجري) ج ١ ص ١٦٩ .
- (٦٩) حدث هذا مع الجريري غلام ابن طرارة، ومع الجامدي الشاعر، وأبي زيد الكيلاني .
- (أخلاق الوزيرين ١١١) .
- (٧٠) المصدر نفسه ٣٣٤ .
- (٧١) المصدر نفسه ٣٥٢ وينظر ص ١٣١ .
- (٧٢) التوحيد، أبوحيان (الامتناع والموانسة ٣١/١) .
- (٧٣) التوحيد، أبوحيان (أخلاق الوزيرين ٢٨٢)
- (٧٤) المصدر نفسه ٢٨٧ .
- (٧٥) التوحيد، أبوحيان (الامتناع والموانسة ٢٠/١) .
- (٧٦) التوحيد، أبوحيان (أخلاق الوزيرين ٤٩١)
- (٧٧) المصدر نفسه ١٦٢ .
- (٧٨) المصدر نفسه ١٦٢ وينظر (الامتناع والموانسة ٥٨/١) .
- (٧٩) التوحيد، أبوحيان (أخلاق الوزيرين ٣٣٥)
- (٨٠) المصدر نفسه ٣٨٣ .
- (٨١) المصدر نفسه ١٩ .
- (٨٢) المصدر نفسه ٣٥ .
- (٨٣) المصدر نفسه ٧ وينظر ص ٣٣ .
- (٨٤) المصدر نفسه ١٥٦ .
- (٨٥) المصدر نفسه ٤٨٧ .
- (٨٦) المصدر نفسه ٢٨٣ .
- (٨٧) المصدر نفسه ٢٠ .
- (٨٨) المصدر نفسه ٤١٠ .
- (٨٩) المصدر نفسه ٢١ .
- (٩٠) المصدر نفسه ٥٣٠ .
- (٩١) المصدر نفسه ٣٤١ .
- (٩٢) المصدر نفسه ١٧٣ .
- (٩٣) ياقوت الحموي (معجم الأدباء ١٢/١٥) .
- (٩٤) المصدر نفسه ٢٧/١٥ .

- (٩٥) التوحيدي، أبوحيان (أخلاق الوزيرين ١٢١)
- (٩٦) المصدر نفسه ١٣٥٠
- (٩٧) المصدر نفسه ٣٩٤
- (٩٨) التوحيدي، أبوحيان (الصدّاقة والصديق ٧٧)
- (٩٩) التوحيدي، أبوحيان (الامتناع والمؤانسة ٤٢/١، ٥٢/١)
- (١٠٠) المصدر نفسه ٢٠/١
- (١٠١) عباس، احسان ٦٩، والحوافي، أحمد ٧٩، ومحبي الدين، عبدالرزاق ٢٨١ والأعسم، عبد الأمير دار الشؤون الثقافية العامة بغداد ١٩٨٦ ص ٦٠
- (١٠٢) التوحيدي، أبوحيان (الصدّاقة والصديق ١٩١)
- (١٠٣) المصدر نفسه ٨
- (١٠٤) ابراهيم، محمود (أبوحيان التوحيدي في قضايا الانسان واللغة والعلوم) ص ٤٧
- (١٠٥) مبارك، زكي، النشر الفني ١٦٢/٢
- (١٠٦) ابراهيم، محمود (أبوحيان التوحيدي ٤٧)
- (١٠٧) عباس، احسان (أبوحيان التوحيدي) ص ٨٥
- (١٠٨) التوحيدي، أبوحيان (الصدّاقة والصديق ١٠)
- (١٠٩) المصدر نفسه ١٠
- (١١٠) التوحيدي، أبوحيان (الامتناع والمؤانسة ٢٠٥/١)
- (١١١) عباس، احسان (أبوحيان التوحيدي ١٧)
- (١١٢) التوحيدي، أبوحيان (الصدّاقة والصديق ١٦١)
- (١١٣) الكيلاني، ابراهيم (أبوحيان التوحيدي ٦٧)
- (١١٤) التوحيدي، أبوحيان (الامتناع والمؤانسة ٤٣/١)
- (١١٥) المصدر نفسه ٤٤/١ - ٤٥
- (١١٦) المصدر نفسه ١٣٦/١
- (١١٧) المصدر نفسه ١٣٤/١
- (١١٨) عباس، احسان (أبوحيان التوحيدي ٧٠)
- (١١٩) ياقوت الحموي (معجم الأدبا ٦٤/٢١٣)
- (١٢٠) المصدر نفسه ٢٠١/٦٠
- (١٢١) التوحيدي، أبوحيان (الامتناع والمؤانسة ٥٩/١)
- (١٢٢) التوحيدي، أبوحيان (أخلاق الوزيرين ١٠٣)
- (١٢٣) ياقوت الحموي (معجم الأدبا ٦٤/٣٦٥)
- (١٢٤) الكيلاني، ابراهيم (أبوحيان التوحيدي ٧٢ وما بعدها) وينظر أبوحيان التوحيدي في (أخلاق الوزيرين ١٢٢) وياقوت الحموي (معجم الأدبا ٦٤/١٩٩، ٢١٣)
- (١٢٥) ينظر رأي الذهبي في اتهامه في طبقات الشافعية للمبكي ودفاع السبكي عنه ٢٨٧/٥
- (١٢٦) الحوافي، أحمد (أبوحيان التوحيدي ١٦٧)
- (١٢٧) عباس، احسان (أبوحيان التوحيدي ١٠٥ وما بعدها)
- (١٢٨) أبوحيان التوحيدي ومسكويه، (الهوامل والشوامل ٢١٣)
- (١٢٩) متن، آدم، (الحضارة الاسلامية ٤١٦/١)
- (١٣٠) ياقوت الحموي، (معجم الأدبا ١٥٤/١٧)
- (١٣١) المصدر نفسه ١٩/١٥ - ٢١
- (١٣٢) التوحيدي، أبوحيان (الاشارات الالهية) ص ٢٣
- (١٣٣) التوحيدي، أبوحيان (الاشارات الالهية ٦)
- (١٣٤) التوحيدي، أبوحيان (أخلاق الوزيرين ٣٠٥)
- (١٣٥) محبي الدين، عبدالرزاق (أبوحيان التوحيدي ٢٣٣)
- (١٣٦) عباس، احسان (أبوحيان التوحيدي ١١٩)
- (١٣٧) التوحيدي، أبوحيان (الاشارات الالهية ٣٤)
- (١٣٨) المصدر نفسه ١٤٠
- (١٣٩) المصدر نفسه ١١٥، ١١٣
- (١٤٠) المصدر نفسه ١١٤
- (١٤١) المصدر نفسه ١١٤
- (١٤٢) المصدر نفسه ١١٥
- (١٤٣) المصدر نفسه ١١٦
- (١٤٤) المصدر نفسه ١١٦
- (١٤٥) المصدر نفسه - المقدمة ١٦

المصادر والمراجع

- الهوامل والشوامل ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥١م تحقيق أحمد أمين وسيد أحمد صقر .
- الشعالبي (أبو منصور عبد الملك بن إسماعيل) - يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر - دار الفكر - بيروت ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد
- ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم - مطبعة دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد ١٣٥٩هـ
- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين) - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - دار صادر بيروت ١٩٦٩م تحقيق إحسان عباس
- السبكي (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب) طبقات الشافعية ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٣٨٦هـ ١٩٦٧م تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الطلو .
- عباس إحسان ، أبو حيان التوحيدي - مطبعة جامعة الخرطوم ١٩٨٠م .
- كرد ، محمد ، أمراء البيان - دار الامانة - بيروت ١٩٦٩م
- الكيلاني ، إبراهيم أبو حيان التوحيدي - دار المعارف - بيروت ، مصر سلسلة نوابع الفكر العربي ١٩٥٧م .
- من كتاب الامتاع والمؤانسة ، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي - دمشق ١٩٧٨م .
- مبارك ، زكي ، النشر الفني في القرن الرابع الهجري - دار الجيل - بيروت ١٩٧٥م .
- متر ، آثم الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري
- إبراهيم ، محمود أبو حيان التوحيدي في قضايا الانسان واللغة والعلوم - دار المتحدة للنشر - بيروت ١٩٧٤م .
- ابن الاثير (عز الدين أبو الحسن علي بن محمد) الكامل في التاريخ . - دار صادر بيروت ١٣٨٦هـ ١٩٦٦م .
- ابن الاثير (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل) البداية والنهاية في التاريخ - مطبعة السعادة بمصر ١٣٥١هـ ١٩٣٢م .
- الأعم ، عبد الأمير أبو حيان التوحيدي في كتابه المقابسات . - دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد ١٩٨٦م
- البغدادى (أبو بكر أحمد بن علي) تاريخ بغداد - دار الكتاب العربي - بيروت (بدون تاريخ)
- ابن تغري بردي (النجم الزاهرة في تاريخ ملوك مصر والقاهرة) - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة (بدون تاريخ)
- التنوخي (أبو علي المحسن بن علي) - نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة - مطبعة صادر - بيروت ١٩١٧م .
- التوحيدي (أبو حيان علي بن محمد) - الاشارات الالهية ، وكالة المطبوعات الكويت ط ١٩٨١م .
- أخلاق الوزيرين ، مطبوعات المجتمع العلمي العربي بدمشق ١٩٦٥م تحقيق محمد بن تاويت الطبخي .
- الامتاع والمؤانسة ، منشورات مكتبة الحياة - بيروت تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين (بدون تاريخ) .
- البصائر والذخائر ، دمشق ١٩٦٤م تحقيق إبراهيم الكيلاني .
- الصداقة والصديق ، المطبعة النموذجية بمصر ١٩٧٣م تحقيق علي متولي صلاح .

ترجمة محمد عبد الهادي أبو رييدة .
لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة
١٩٤١م .

- محيي الدين ، عبدالرزاق أبوحيسان
التوحيدي ، سيرته - آثاره
المؤسسة العربية للدراسات والنشر -
بيروت ١٩٧٩م
- مسكويه (أبو علي أحمد بن محمد) تجارب
الأمم ، شركة التمدن الصناعية بمصر ١٣٣٣هـ
١٩١٥م .

- الهوامل والشوامل ، تحقيق أحمد أمين
وسيد أحمد صقر ، مطبعة لجنة التأليف
والترجمة والنشر ١٩٥١م .

- ابن النديم (أبو الفرج محمد بن أبي
يعقوب)
الفهرست ، تحقيق رضا - تجدد طهران ١٣٩١هـ
١٩٧١م
- ياقوت (أبو عبد الله) معجم الأدباء
دار احياء التراث العربي - بيروت ١٩٢٢م
تحقيق أحمد فريد الرفاعي .